بنّية الحدث في الرواية العربية الجديدة

روايتا (مراثي الأيام) و(رأس الحسين) مثالاً

م . د . قاسم نجم عبد القريشي

جامعة ميسان / كلية التربية الأساسية

بنّية الحدث في الرواية العربية الجديدة ...

الملخص :

تمتاز هاتان الروايتان باشتمالهما على كثير من الأساليب السردية غير المعهودة في الرواية الكلاسيكية ، وبنيّة الحدث الروائي واحدة من أهم تلك الأساليب إنْ لم يكن أهمها على الإطلاق ، فضلا عن المفارقات السردية على مستوى الزمان والشخصيات ، والخطاب ، والوظائف ؛ فالحكايات الثلاث في رواية (مراثي الأيام ثلاث حكايات عن الموت) للروائي السوري حيدر حيدر قامت على نسق التوالد والتناسج وهو من الأنساق البنائية الجديدة ، وأما رواية (رأس الحسين) للروائي البحريني عبدالله خليفة فقد قامت على نسق اللوحات السردية وعلى وفق ذلك يمكن وصف الروايتين على أنّهما روايتان بالمعنى التجريبي أو الرواية الجديدة .

Summary:

the structure of event in the new arabic novel (lamentations of days and raa's of hussien) as example

perhaps what distinguishes these two literary novels (research topic) its features by including many of methods recitatives unused in the teaditional novel.

the structure of the novelist event ,maybe, is one of the more important of these methods or the most important at all , as well as ,these two novel are replet of paradoxes at the level of time , place, jobs and message.

the three tales in the novel (lamentations of days) by syrian novelist hayder hayder are three tales of the death without common denominator but the adress , so, each of the three tales has thier independent elements.

the novel of (raa's of hussien) by the bahraini novelist abdualah khailfa carried on the narrative plates system, to coverage an events spread for fortieth days through one forty narrative plates.

wherefore ,we can brand the two novels by experimental,or, new novel.

المقدمة :

تشذرت الرواية العربية الجديدة عن كثير من الأساليب السردية غير المعهودة في الرواية التقليدية (الكلاسيكية) آخذة بالتبلور باتجاه يمنحها التفرد والاستقلالية بما تملكه من مزايا وسمات ، ومن الروائيين الذين سعوا إلى هذا الاتجاه الروائي السوري (حيدر حيدر) والروائي البحريني (عبد الله خليفة) في روايتيهما (مراثي الأيام ...) و (رأس الحسين) ، ويدور موضوع البحث على هاتين الروايتين .

قسم البحث على مبحثين اثنين ، اختص الاول منهما باستجلاء بنيّة الحدث في رواية (مراثي الأيام ...) فيما اختص المبحث الثاني منهما ببيان بنيّة الحدث في رواية (رأس الحسين) وقد سبقهما مهاد نظري في (معنى الرواية الجديدة والحدث) وختم البحث بأهم ما توصل إليه الباحث من ملاحظ و نتائج .

ولأنّ الحدث من أشمل العناصر السردية المنطوية على علاقات كثيرة مع الشخصية والزمان ، واللغة [1] ؛ الأمر الذي سوغ للباحث أن يقف عند بعض الحيثيات في تضاعيف المبحثين ، وهي من الأهمية بمكان .

توطئة :

مهاد تنظيري في الرواية الجديدة ، وبنيّة الحدث .

ما الرواية الجديدة ؟.

يتنازع مفهوم الرواية الجديدة عدّة مسميات ، فتارة تسمى رواية اللارواية Anti Novel ، والرواية التجريبية Experimental Novel ، ورواية الحساسية الجديدة ، والرواية الطليعية ، والرواية الشيئية ، فضلاً عن الرواية الجديدة [1].

١- المتخيل السردي مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة ، عبد الله إبراهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م : ٣ .

وبالرغم من تعدد التسميات لمفهوم الرواية الجديدة فكلها تدل على أنّ الرواية الجديدة شكل روائي له ما يميزه عن الرواية الكلاسيكية أو التقليدية .

ولعل من أبرز خصائص ومزايا هذا الضرب من الرواية ، انحرافات السرد المتعمدة المتكررة ، فثّمة انتقال من حدث إلى آخر ، ومن مكان إلى مكان ، ومن شخصية إلى أخرى ، ويفقد الزمن أهم خصائصه ، وهو التسلسل ، وتتداخل الأزمنة ، وأحياناً تختفي ، وكذا المكان ، وموضوع الرواية لا يتصف بالوحدة أو التناغم أو التحديد ، والشخصيات مجرد أطياف أو أسماء ، أو هي مجرد حروف لا معنى لها (س . ص) أو رموز أو ضمائر أو أصوات ، ولغة الرواية ليست واحدة ، فهناك مستويات متعددة ، وأحياناً نلحظ تمرداً على اللغة المألوفة وتراكيبها وقواعدها [٢] .

ما الحدث ؟.

يمتاز (الحدث) بعدّة علائق مع سائر عناصر السرد الأخر ، فله علاقة بالشخصية ، الأمر الذي دعا أحد النقاد إلى تعريف الحدث بقوله : ((الحدث هو الفعل أو الحادثة التي تشكلها حركة الشخصيات لتقدم في النهاية تجربة إنسانية ذات دلالة معينة ... فالكاتب ينقل إلينا الأحداث من خلال تطور شخصيات الرواية ؛ فالشخصية هي التي تحدد للحدث الروائي مساره وتعكس كل ما يوحي به))[٣].

ويرى بعض النقاد ((أنّ كل ما في نسيج القصة يجب أن يقوم على خدمة الحدث ، فيسهم في تصوير الحدث وتطويره ، بحيث يُصبح كالكائن الحي له شخصية مستقلة ، يُمكن التعرف عليها ؛ فالأوصاف في القصة لا تُصاغ لمجرد الوصف ، بل لأنّها تُساعد الحدث على التطور ، لأنها في الواقع جزء من الحدث نفسه))[٤].

وللحدث علاقة ((بمحورين احدهما زمان حصول الفعل أو لنقل السقف الزماني للحدث والآخر الأرضية المكانية التي لا يمكن لحدث أن يتحقق إلا على مهادها . والعنصران كلاهما لا ينفصلان عن الحدث بأي شكل من الأشكال)) [٥].

إنّ العلاقة جد وثيقة بين (الحدث) و (الزمان) ولا يمكن دراسة احدهما بعيداً عن الآخر ، لأن الحدث (اقتران فعل بزمن) [٦] ، والزمان (مدى بين الأفعال) [١] ، من هنا كان اهتمام النقاد والباحثين بدراسة البناء

---

[١] - أنماط الرواية العربية الجديدة ، د . شكري عزيز الماضي ، عالم المعرفة (٣٥٥) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ٢٠٠٨ م : ١٤ .
[٢] - م . ن : ١٥ .
[٣] - التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ دراسة في تجليات الموروث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ م : ٦٩ .
[٤] - فن القصة القصيرة ، د . رشاد رشدي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٤ م : ١١٥ – ١١٦ .
[٥] - بناء الحدث في الفن القصصي – رواية تنظيرية - ، د . صبري مسلم ، مجلة اليرموك ، الأردن ، العدد : ٦٠ ، ١٩٩٨م : ٤٢ .
[٦] - دراسات في القصة العربية الحديثة ، د . محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، (د . ت) : ١١.

الزمني للأحداث ، والكيفية التي تنتظم بها ، وقد أدت تلك الأبحاث والدراسات إلى ظهور مصطلح (الأنساق البنائية للأحداث) ، وكان (بروب) أول من حاول الكشف عن هذه الأنساق إلا أن سعيه هذا لم يكتمل إلا على يد (شكلوفسكي) ، فقد سمى الأنساق بمصطلحات معينة بعد أن كانت مجرد خطوط بيانية لدى الأول [٢].

ويتنازع التسلسل الزمني للحدث الروائي اتجاهان ، الأول : وهو أن يلتزم الروائي فيه بـ(التسلسل المنطقي للأحداث)[٣] ، فضلا عن تدخل الراوي في كل شيء تقريبا ((فهو يقدم الشخصيات ، ويسرد الوقائع ، والأحداث ، بالطريقة التقليدية للفن الروائي دون أن يكون هناك غموض في الشخصيات أو في الأحداث))[٤] ، وتمثل الرواية الكلاسيكية هذا الاتجاه . ومثل هذا التسلسل اختفى في الرواية الجديدة ، ليحل التداخل ، والتفكيك ، وعدم التتابع الذي عهدناه في الرواية الكلاسيكية ؛ حتى صار القارئ مشاركا في صنع النص ؛ ذلك لأنّ الرواية الجديدة ليس أمام القارئ فيها إلا المبادرة إلى كتابة النص بنفسه وإلى إنتاجه [٥]، وهذا ما يمثل الاتجاه الآخر .

المبحث الأول – بنيّة الحدث في رواية مراثي الأيام ... .

نسق التوالد والتناسج بوصفه نسقا بنائيا للحدث :

لعل من أهم ما تمتاز به رواية (مراثي الأيام ...) نسقها البنائي الذي تقوم عليه ؛ إذ لم تعهده تنظيرات النقاد من قبل وتحديداتهم ، والموسوم بـ(نسق التوالد والتناسج) ، والذي استله الباحث من المقدمة التي كتبها الروائي نفسه التي جاء فيها أنّها ((قصة غير مألوفة في بنيتها الروائية ، والتي تتوالد وتتناسج حكاياتها ، حيث تبدو متناثرة كبذار الحبّ في الأرض عبر فصول الزمن ... ما كانت كنسيج روائي موّحد الهيكل ، في ذاكرتي ولا في فضاء أفقي أو مشروعي الأدبي حين بدأتها ، لكن المصادفة الغريبة والمذهلة دفعتها بإلحاح إلى عتبة الوعي والذاكرة والمباشرة بها ، حين هيمنت على تفكيري وفرضت بنائها كمشروع راهن)) [٦].

ولهذا النسق وجه شبه واختلاف مع بعض الأنساق البنائية الأخرى من مثل نسق (التضمين) و (التتابع) ، أما وجه الشبه مع نسق (التضمين) فبلحاظ الغايات والدلالات التي يروم الروائي بلوغها ، فضلاً عن الارتقاء بالنص الروائي جماليا ، وروحيا ، ونفسيا ، ولكنه يختلف بلحاظ أنّ القصة في نسق التضمين ((لا علاقة لها

---

[١] - الأزمنة والأمكنة ، أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي ، مجلس المعارف ، حيدر آباد ، الهند ، ط ١ ، ١٣٣٢ هـ ، ج ١ : ١٤١ .
[٢] - البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، شجاع العاني ، ج ١ : ١١
[٣] - فنون الأدب العالمي ، نبيل راغب ، لو نجمان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط١ ، ١٩٩٦ م : ١٨٥ .
[٤] - الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، د . فاطمة الزهراء سعيد ، المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨١ م : ١٢ .
[٥] - في نظرية الرواية دراسة مناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة ، د . سيد إبراهيم ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د . ط ، ١٩٩٨ م : ٢١٢ .
[٦] - مراثي الأيام ثلاث حكايات عن الموت ، حيدر حيدر – رواية – أمواج للطباعة والنشر والتوزيع ، ورود للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١ : ٧ .

بالحدث الرئيس ، بحيث يتوقف السرد في المتن الروائي ، لتروى هذه القصة حتى نهايتها ، ومن ثم يستأنف السرد في المتن الروائي من جديد ...)) [1] . وأما في نسق (التوالد والتناسج) فلا يتوقف السرد في المتن الروائي ؛ فالقص المتأخر منها امتداد للمتقدم ، أو من تداعياته ، وهكذا.

وأما وجه الشبه مع نسق (التتابع) فبلحاظ أنّ أحداث النسقين تقع في خط زمني واحد ، من دون انحرافات زمنية ، وأنّ الأحداث في النسقين خاضعة لمنطق السببية ، فالسابق يكون سبباً للاحق إلا أنّ ما يفرق الحدث في نسق التوالد أنّه لا يخضع لمنطق التسلسل الصارم ، كما في نسق التتابع ، فليس بالضرورة أنْ يقع الحدث اللاحق مباشرة بعد الحدث السابق ، فقد يكون الفاصل الزمني بينهما مدة زمنية طويلة قد تمتد إلى مئات السنين ، ويبدو أنّ قراءة الروائي للواقع قراءة واعية ، وما ناء به ، من حوادث دفعت به إلى اعتماد هذا النسق ، فحوادث اليوم أو الزمن الراهن ؛ ما هي إلا نتيجة حتمية لحوادث الأمس البعيد !.

أنواع الحدث في الرواية :

أ – الحدث التاريخي ، والحدث المعاصر :

تنهض رواية (مراثي الأيام ثلاث حكايات عن الموت) على ثلاث حكايات ، هي : الحكاية الأولى (باب المراثي والأضرحة) ، والحكاية الثانية (اغتيال في الغسق) والحكاية الثالثة (المجرات) ، وسيقف الباحث عند الحكاية الأولى والموسومة بـ(باب المراثي والأضرحة) وحسب ، من دون اخضاع الحكايتين الاخريين ؛ لمبضع النقد لتشابه موضوعيهما مع موضوع الحكاية الأولى .

يعمد الروائي في هذه الحكاية إلى استحضار حادثة تاريخية معينة ، يستلها من كتاب الطبري ليوثق بها مجموعة من الفظائع ، والأحداث الدموية ، وسياسة المكر والختل التي اتبعتها السلطات العربية الحاكمة على مر العصور ، ومن ثمّ يعمد إلى البحث عن تداعيات تلك الحادثة ، وما تناسل منها من حوادث في الزمان ، والمكان .

وتمتاز الرواية بوجود راويين عُبر عن أحدهما بـ(الراوي التاريخي) وهو (محمّد بن جرير الطبري) ، وعبّر عن الآخر بـ(الراوي المعاصر) والمسمى (غيلان الدمشقي) الذي ليس له من مهام سوى التعليق على قول الراوي التاريخي ، وهو لا يعدو كونه الروائي نفسه ، ومن تلك الأخبار والحوادث التي أوردها الراوي على لسان (الراوي التاريخي) قوله : ((قال الراوي : ولما قتل الحسين بن علي جيء برؤوس من قتل معه من أهل بيته وشيعته وأنصاره إلى عبيد الله بن زياد . فجاءت قبيلة كندة بثلاثة عشر رأسا ، وصاحبهم قيس بن

[1] ـ الرواية الفرنسية الجديدة ، نهاد التكرلي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٥ م ، ج٢ : ٢٤.

الأشعث ، وجاءت قبيلة هوازن بعشرين رأساً ، وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن ، وجاءت تميم بسبعة عشر رأسا ، وجاء بنو أسد بستة رؤوس وجاءت مذحج بسبعة أرؤس . وجاء سائر الجيش بسبعة أرؤس ، فذلك سبعون رأسا)) [١].

ومما أورده أيضا :

- ما فعله أبو العباس السفاح بجثث بني أمية عندما أخرجها من قبورها وراح يجلدها ثم احرقها ونثر رمادها في الريح [٢].

- مقتل عمرو بن سعيد بن العاص على يد عبد الملك بن مروان [٣].

- مقتل الحسين بن علي وسلبه والتنكيل بجثته [٤].

- اقتتال آخر ملوك غرناطة المهزومين [٥].

- وصية المنصور لابنه المهدي حول السلطان ، ومقتل أبو مسلم الخراساني[٦].

- مقتل زوج العباسة على يد هارون ومطاردة البرامكة [٧].

- وقائع الاقتتال الدموي بين الأخوين الأمين والمأمون من اجل الاستحواذ على الملك [٨].

ومن الجدير بالذكر القول إنّ ثمّة فرق بين الرواية التأريخية ، والرواية المعاصرة الجديدة التي وظفت التأريخ جزئيا أو كليا ، فالرواية التاريخية عمدت إلى اعادة تشكيل التاريخ بنماذجه وأحداثه ، أما الرواية ذات الموضوع التاريخي فليس من شأنها ذلك ، بل تعمد إلى استنباط موضوعات تاريخية بما ينسجم ماهو تاريخي مع ماهو معاصر في هيكل فني واحد [٩].

وعلى وفق هذا الشأن تقوم رواية (مراثي الأيام ...) فهي ليست رواية تاريخية بالمعنى المتعارف عليه ، فليس من هم الكاتب إعادة كتابة التاريخ ، بل يعمد إلى توظيفه أو بعض أحداثه ؛ بوصفها خلفية تأريخية لما هو

---

[١] - الرواية : ١٥
[٢] - الرواية : ٨
[٣] - الرواية : ١٢ – ١٣
[٤] - الرواية : ١٤ – ١٥ .
[٥] - الرواية : ١٦ – ١٨ .
[٦] - الرواية : ١٩ – ٢١ .
[٧] - الرواية : ٢٥ .
[٨] - الرواية : ٢٩ – ٣٤ .
[٩] - الموضوع التاريخي في الرواية السورية المعاصرة ، هدى نايف الجبر ، رسالة ماجستير ، جامعة دمشق ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية وآدابها ، ١٩٩٠ م : ١٢.

قائم اليوم ، وهي ضرب من ضروب (التناص) ، يقتبس فيها الراوي أخباراً من الماضي تنوء جميعها بالمحن ، والدماء المسفوحة ، والقهر ، والحرمان ، ليعمد بعد ذلك إلى مقاربتها بأحداث الحاضر ، ومقارنتها بالواقع المعاش ؛ ليصل إلى نتيجة مؤداها : ((أنّ تاريخ السلطة العربية في الماضي والحاضر واحد لم يتغير سوى في الشكل والمظهر ، أما الجوهر فواحد ويبدو شبه سرمدي ، لكنه متأصل بنيويا وسلاليا وجنينيا (داخل علم الهندسة الوراثية في التكوين السلطوي ونظرية الحكم))[١].

ومن ثم فالزمن العربي حسب تعبير الروائي هو زمن (خذروفي) كما وصفه الروائي في تقديمة لروايته بقوله : ((وتأسيسا على هذا التاريخ ، بدا لي الزمن العربي شبيها بخذروف يدور حول ذاته في فضاء من الدم والفتك والعسف والأهوال اللانهائية))[٢].

والخذروف كما عرفته معاجم اللغة : عُوَيدٌ مشقوق في وسطه ، يشدُّ بخيط ويُدَوَّر فيُسمع له حنين ، ويشبه به كل سريع في جريه ، ويسمى أيضًا خَرَّارة ودُوَّامة.[٣]

وكأنّ الروائي أراد القول إنّ الأحداث والوقائع الدموية تتوالد وتتناسج من بعضها بعضا ، وأن الحدث اللاحق منها ما هو إلا من نتاج حوادث الزمن الغابر ، وإن كان الفاصل بينهما السنوات الطوال ، وإذا أراد الباحث اختصار الدلالة في استعمال الروائي لهذا النمط من الأنساق البنائية ، فليس سوى في كلمة واحدة : إنّ التاريخ هو نفسه بأحداثه ووقائعه ، وليس سوى التغيير في الأشخاص والمسميات !.

ب – تقنية الحلم بوصفها حدثا ...

تعد هذه التقنية واحدة من أصعب التقنيات ، ولاسيّما في الرواية الجديدة ، بفعل مزايا السرد في هذا الضرب من الرواية ، وانتقالاته المتكررة على مستوى عناصره كافة !.

ومن مزايا هذه التقنية في الرواية موضوعة البحث توكيد ((واقعية الرواية ، بوصفها حالة يستشعرها الشخص في منامه ، فتومئ إلى ذكريات بعيدة أو توحي بأحداث قادمة أو تشير إلى واقع يعيشه صاحب الحلم وقد يكون الحلم في يقظة أو بين اليقظة والمنام ، ويعبر عن رغبة مكبوتة في أعماق الشخصية))[٤]. وتمنحها في الآن نفسه بعدا نفسيا ، وفكريا ، يتجاوز حدود واقعيتها !.

---

[١] - الرواية : ٨

[٢] - الرواية : ٨ .

[٣] - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، ط٤ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م ، ص ٢٢٢ .

[٤] - حوار مع الرواية المعاصرة في مصر وسوريا ، محمد القاعد ، دمشق ، أشبيلية للدراسات والنشر ، ١٩٩٧م : ٢٧٥.

ومن ثمّ فليس أمام (الراوي المعاصر) إزاء هذا الواقع المضرج بالدماء البريئة إلا البحث عن نافذة للحلم ، وإن كانت ضربا من وهم أو خيال أو أحلام يقظة ، أو في المنام ، وليس أمامه سوى جزيرة (حي بن يقظان) التي يتردد ذكرها كثيرا في الرواية بوصفها مكانا حميميا يلجأ إليه هروبا من واقع ليس فيه سوى لغة الدم والموت ((قال الراوي المعاصر : ورأيت فيما يرى النائم أنّ روحي غادرت جسدي خارجة من تلك الممالك والصحارى والبلدان ((في ذلك الزمن كنت أهجس بالهجرة والرحيل إلى جزيرة بعيدة تشبه جزيرة حي بن يقظان وفي رأسي سؤال سأطرحه على صديقي حي الذي اختار العزلة منفى وملاذا : هل الوصول إلى الله عن طريق التأمل والكشف والاعتزال يغسل تاريخ الدم والشهوات ؟ وهل التسبيح والتمجيد لمصادر النور والخلق الأول والفيض الأعلى كافية لقتل الوحش الكامن في بلازما الدم) وكان أن تحول جسدي إلى ما يشبه الطيف ، وكانت الروح دليلي وقرينتي . وداخلني شعور إنسان ومنفي وبلا سلاح . عار بلا لباس أو عتاد ...))[١] .

ويبدو للباحث عدّة أسباب دعت الروائي لأن يلوذ بالحلم ، ومنها :

- لقد عمد الروائي إلى استظهار الجانب النفسي للشخصية الروائية ، وتوقها إلى عالم من النقاء لم تمتد إليه أيادي العابثين بعد ؛ ولذا عمد إلى ((جزيرة عذراء ، شكّلها الحلم الطفولي ، انفصلت ذات دهر عن أمها الشمس ، وهوت في الطرف الأقصى والغامض ، هناك في عالم ما وراء بحر الظلمات))[٢] .

- والحلم في الرواية بمثابة تعويض عن حالة الاستلاب التي تعيشها الشخصية بفعل ما تعيشه من ظروف القهر والحرمان ؛ ((لإزاحة كابوس التاريخ وظلاله السوداء))[٣] .

- توفر تقنية الحلم نوعا من الانعتاق من كثير من التابوهات والمحظورات المجتمعية ، والوصول إلى الله ، حيث الفطرة لعلها تغسل تاريخا من الدم والشهوات ، وقتل الوحش الكامن في بلازما الدم ((هل الوصول إلى الله عن طريق التأمل والكشف والاعتزال يغسل تاريخ الدم والشهوات ... لقتل الوحش الكامن في بلازما الدم ...))[٤].

الخطاب الروائي :

ويتمثل الخطاب الروائي في ((الطريقة الذي تقدم به المادة الحكائية ، فقد تكون المادة الحكائية واحدة ، لكن ما يتغير هو الخطاب في محاولة كتابتها ونظمها ...))[٥] ومن ثم فالخطاب الروائي يتمثل ((في لغة الراوي ،

---

[١] - الرواية : ٢١ .
[٢] - الرواية : ٥٠ .
[٣] - الرواية : ١٠ .
[٤] - الرواية : ٢١ .
[٥] - تحليل الخطاب الروائي الزمن ، السرد ، التبئير ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٩٩٧ م : ٧ .

وحواراته ، وفي تعدد مستويات الحكي ...))[1] ، وللخطاب الروائي عدّة وظائف ، لعل من أهمها ما أشار إليها (جاكبسون) ، وتتمثل في : ((الوظيفة الانفعالية ، أو التعبيرية ، وهذه تكشف عن خبايا المبدع نفسه ، والتعبير عن عواطفه وخلجات نفسه ، ورغبته في التأثير في المتلقي ، أما الوظيفة الإبلاغية أو الإيصالية فتهدف إلى إفهام المتلقي مضمون الرسالة التي بثها المبدع ... أما الوظيفة الإنشائية (الشعرية) فتمثل جوهر الرسالة التي يحملها الخطاب الأدبي ...)) [2] .

بنية اللغة :

عند رصد الخطاب الروائي في الرواية موضوعة البحث ؛ وأساليب توظيفه من لدن (الراوي المعاصر) يتضح أن لغة الرواية تتوزع بين أسلوبين لا ثالث لهما ، يتمثل أولهما بالإيماء ، والإيحاء ، والرمز ؛ والانزياح ، والتناص ، لما لتلك الأساليب من القدرة على الإحاطة بالتضمينات الفكرية التي يعج بها النص ، والتي تنطوي في خباياه ، أكثر مما تبدو عليه في ظاهره ، ولذا ((قال الراوي المعاصر : وعبر الأزمنة ستواصل تلك الروح البدائية ، ذات النزوع الطوطمي ، المضمخ بالقداسة وشيم الثأر والجنون الدوري ، رحلتها الجحيمية في دروب التدمير الذاتي . دروب الحنين والوله لامرأة عشقت في عصر غابر ، رائحتها ما تزال في خلايا الجسد وكريات الدم ، وجيناتها ستورّث عبر الأجيال . جينات شهوة القتل والموت ، ستسمى حسب الفصول والتقاويم بأسماء مستعارة . فهي في الحكاية شهرزاد . وفي شبق السلطة والحرب زنوبيا أو شجرة الدرّ أو ست الملك . وفي الشعر والأدب ولّادة أو ليلى العامرية أو الخنساء . وفي التصوف رابعة العدوية . وفي الحب والغيرة والأنانية الخيزران أو عائشة أو العباسة . ولعل شجرة الدر أو زنوبيا أو كليو باترة سيمثلن ذروة الحنين عبر تموجات الزمن ، والميراث السلالي . هؤلاء النسوة اللامعات في المكر ، المستترات خلف حجاب الحب والأمومة توقا إلى السلطة والمجد ، سيلعبن أدوارا باهرة وهنّ في دوائر الظلّ ، وهنّ يتقمصن جسد الرجل في الحرب ، أو ينسجن المؤامرات من وراء الستار.))[3] .

وآخر الأسلوبين الذي اعتمده الروائي ، هو الأسلوب المباشر في عرض الحدث المعاصر من دون مواربة ، مستثمرا إياه لغايات تواصلية ؛ فتراه يفصل القول في كثير من المآسي والمجازر التي شهدتها بلاد العرب و المسلمين ، من مثل :

[1] - بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان مقاربة بنيوية ، زهيرة بنيني ، أطروحة دكتوراه في علوم الأدب الحديث ، جمهورية الجزائر ، جامعة العقيد الحاج لخضر ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، قسم اللغة العربية وآدابها ، ٢٠٠٨ م : ٥٦ .
[2] - مفهوم الأسلوبية عند جاكبسون ، عبد الرزاق الورتاني ، مجلة القلم ، العدد ١٠ ، تونس ، ١٩٧٧ م : ١٣ – ١٤
[3] - الرواية : ١٥ – ١٦ .

- ضرب مدينة حلبجة بالأسلحة الكيمياوية : ((حلبجة هيروشيما المصغرة ، كان ضحيتها خمسة آلاف قتيل ، وآلاف المشوهين من الغازات السامة ، والأسلحة الكيمياوية)) [١] .
- مجزرة مدينة المتيجة الجزائرية : ((وقال الراوي الشاهد : وفي ليلة الثاني والعشرين إلى الثالث والعشرين من أيلول ١٩٩٧ ميلادية دخل القتلة بلدة (بن طلحة) وهي من بلدات (المتيجة) في الضاحية الجنوبية لمدينة الجزائر ، وقتلوا مائتي إنسان من أهلها البالغ عددهم أربعة آلاف نسمة)) [٢] .
- فتاوي السبي ، وشرائط توزيع النساء المسبيات ، فضلا عن توزيع المغانم [٣].

ولعل من أهم أسباب لجوء الراوي إلى الأسلوب المباشر أن اللغة التصويرية للحدث عند الواقعيين وفي الرواية الجديدة تتسم بالموضوعية المباشرة ، والمفاهيم التقنية ، والريبورتاج الواقعي التوثيقي القائم على محاكاة الواقع وتصويره ، والغاية من ذلك كله إضفاء الواقعية والتوكيد بصدق الواقع ، والفضاء التخييلي معا الذي تنقله الرواية [٤] .

المبحث الثاني – بنيّة الحدث في رواية رأس الحسين .

تدور أحداث رواية (رأس الحسين) حول مسيرة الرأس الشريف في المكان من كربلاء إلى دمشق ، وإلى غيرهما من مدن الأرض ! وفي الزمان أيضاً ، في الماضي والحاضر والمستقبل ! .

وإذا كان الحدث التاريخي لواقعة الطف الأليمة كما ضجت به كتب المقاتل ، والسير لا يفصح عن مسيرة الرأس الشريف إلا في زمان ، ومكان محددين ، في سنة ٦٣ هـ في الزمان ، ومن كربلاء إلى دمشق ، في المكان ، فإن الرواية تقوم على عدة أزمنة ، وأمكنة ، فالأول منها ، هو زمان ومكان الواقعة ، والآخر هو ما تنتظمه القصة أو تتبناه هي أو خطابها من زمان ، ومكان ، ومن ثم فالأول واقعي بطبيعة الحال ، والثاني خيالي أو رمزي .

لقد أتاحت للروائي حمولاته الفكرية والثقافية ، وقدرته على فهم النهضة الحسينية واستيعاب أبعادها إلى حد ما ، أتاحت له سبر أبعاد تلك الواقعة ، وتجلياتها ، فللرواية مرجعية تاريخية ممتدة في عمق الزمان لأكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ولكن الكاتب لا يتعامل مع تلك المرجعية إلا على وفق النظر التأملي ، الإيحائي والرمزي .

نسق اللوحات السردية بوصفها نسقا بنائيا للحدث :

---

[١] - الرواية : ٤٥ – ٤٩ .
[٢] - الرواية : ٤١ .
[٣] - الرواية : ٤١ – ٤٣ .
[٤] - انظر : اللغة في الخطاب الروائي ، جميل حمداوي ، مجلة دنيا الوطن الالكترونية :
https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/11/27/64575.html

تنهض رواية (رأس الحسين) على إحدى وأربعين لوحة سردية تبدأ من لحظة فصل الرأس الشريف عن الجسد الطاهر ، وتنتهي عند السيدة زينب (عليها السلام) في مجلس الطاغية .

لقد بُني الحدث الروائي على وفق نسق اللوحات السردية ، والتي تجاوزت الأربعين لوحة ، تتخللها في بعض الأحيان بعض الاسترجاعات في هذه اللوحة أو تلك ، إلا أن المتلقي لا يظفر من هذا النظام إلا بتوالي الزمان كما هو في واقعه ، من لحظة فصل الرأس الشريف ، حتى خاتمة الرواية من دون الاعتناء كثيرا بتوالي الأحداث كما ناء بها الواقع ، فلا يجد المتلقي في اللوحة الثانية ما يعده مكملا للوحة الأولى ، وهكذا الثالثة ، بل يجد في كل لوحة ما قد يكون مغايرا لسابقتها من مواقف ، وأحداث ، بيد أنّ كل لوحة تالية متأخرة عن سابقتها في الزمان . باستثناء بعض اللوحات القائمة على تقنية الاسترجاع ، وهي قليلة .

تمظهرات الحدث الروائي في الرواية :

ولعل من أهم تمظهرات الحدث الروائي في الرواية ما يلي :

أولاً – شكل الرأس الشريف محورا أساسيا في الحدث الروائي .

ثانياً – لا يلبث الحدث الروائي التاريخي في الرواية أن ينتقل من الواقع كما في مراجع التاريخ إلى الحدث العجائبي التخييلي ، وهذه الخصيصة من أبرز ملامح الحدث في الرواية ، فلم يحرص الروائي على الحدث التاريخي كثيرا ؛ قدر حرصه على التركيز على الحدث العجائبي التخييلي ، ولعل من أبرز مظاهره (اختفاء الرأس وجثث القتلى في الرواية) [١] ، والروائي ((بهذا النزوع نحو العجائبية لا يقصدها بحد ذاتها ولا يرمي للتسلية والمتعة ، بقدر ما يرمي إلى جعل رأس الحسين رمزا كبيرا يستمر في واقع الناس اليوم ليتحدوا به القهر والظلم والهزيمة ، وهو الذي فعل داخل النص ذاته حين صير حمزة وبعض المسحوقين في واقع الناس آنذاك إلى ثوار ...)) [٢] .

ثالثاً - ومزايا الحدث الروائي في الرواية أن المتلقي لا يستطيع الظفر به ، ولو من حيث اللغة أو الوصف إلا من سلوكيات الشخصيات الروائية ، وأفعالها فليس للحدث أن يملك تلك الاستقلالية بذاته ، وليس للحدث ((وحده في تأليف قصة ما ، بل لا بد من وجود الشخصية التي تدور القصة معها أو حولها ، بحيث تبث الحركة فيها ، وتمنحها الحياة)) [٣] ولكي تتضح ((الدوافع التي أدّت إلى وقوع الحدث ، لا بد من التعرف على

[١] - رأس الحسين ، عبد الله خليفة ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، ط١ ، ٢٠٠٦ م : ٦

[٢] - رأس الحسين/ أسئلة التاريخ ... أسئلة الدم قراءة في رواية رأس الحسين للروائي عبد الله خليفة، د.عزالدين جلاوجي – مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية ، العام الرابع ، العدد ٣١ ، ٢٠١٧ ، الجزائر : ١٢٣ – ١٢٤ .

[٣] - القصة والرواية ، عزيزة مريدن ، دار الفكر، دمشق ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م : ٢٦.

الأشخاص الذين قاموا بالحدث ، والحدث في حد ذاته : هو تصوير الشخصية وهي تعمل ، فلا يُمكن الفصل بين الشخصية والحدث))[1].

رابعاً – لم يكن الروائي مسكونا بالحدث التاريخي وحسب ، ولذا جاء هامشيا إذا ما قيس بالحدث العجائبي المتخيل ، وكأنّ الروائي يرمي بذلك إلى تعرية الواقع ، والكشف عن حقيقة النفوس ، وما يعتلج فيها ؛ ولذا تعددت مستويات الشخصيات الروائية .

وعلى وفق ما تقدم تعددت مسارات الحدث الروائي في الرواية وفقا لمسارات الشخصيات في الرواية ، والتي يمكن تشخيصها واجمالها بأربعة مسارات ، هي :

المسار الأول - مسار الرأس الشريف (عليه السلام) !.
المسار الثاني - مسار السيدة زينب (عليها السلام) !.
المسار الثالث - مسار القتلة ! .
المسار الرابع - مسار حمزة !

إن هذا التعدد في مسارات الرواية ، أدى إلى تعدد الرواة من جهة ، وإلى تعدد (الخطاب) من جهة أخرى ، وكل هذا يؤدي بدوره إلى تفسير ما تنهض به الرواية ، من رموز ، وإيحاءات . والباحث وإن قسم الحدث الروائي على مساراته تلك ، فهذا لا يعني استقلالية المسارات عن بعضها البعض ، فقد تواشجت ، وتداخلت ، وأثر بعضها في بعض إلا أنها خاضعة كلها لتأثير المسار الأول ، مسار (الرأس الشريف) الذي شكل المحور الأساس للمسارات الآخرى ، وللحدث الروائي .

فما الذي أفصحت عنه ، أو أوحت به ، أو رمزت إليه المسارات الأربعة ؟. وسيبدأ الباحث من المسار الأخير ، مسار (حمزة) ؛ لغايتين ، فنية و فكرية .

المسار الرابع - مسار (حمزة) :

إنّ مسار (حمزة) أو شخصيته تمثل الشخصية الرئيسة في الرواية ، ويتجلى فيها أكثر من غيرها فعل المسار الأول (مسار الرأس الشريف) وهذه الشخصية ليس لها من وجود خارجي ، إنما هي من ابتداع الكاتب . لقد كان (حمزة) مجرد شخصية هامشية مبتذله ، يعمل مهرجا في قصر (الخليفة) قادته أطماعه للمشاركة في قتال الحسين (عليه السلام) عله يحظى بكرم (الخليفة) فيغدق عليه الأموال ، ويتزوج ، و ... .

[1] - فن التحرير العربي ، د . محمد صالح الشنطي ، ط٤، دار الأندلس، حائل ١٤١٧هـ-١٩٩٦ م : ١٨٦.

وتتوالى الأحداث ، ويفعل الرأس المرفوع على قصبة عالية فعلته في (حمزة) ، وليعود تدريجيا إلى ذاته المخدوعة ببريق الوعود والإغراءات ، ليكتشف عظم الجريمة التي شارك فيها ، وعظم المستنقع الذي عاش فيه ، وكأنّ روحا جديدة بدأت تدبّ في أوصال ذلك الجسم الممزق ، ووعيا آخر بالتسرب إلى فكره ، ليتحول إلى داعية إلى تلك القافلة القادمة ((من مستنقع الدم ، من نافورة النور ، من زمن المسيح ، من زمن الذبيح ، ستجدون فيها رأسا ميتة تتكلم ، وعينين هادئتين لكنهما تشعان ، والقافلة تسير وتوزع حبات الزهر والكلام للأنام الراقدين عبر العصور ، الذين يحفرون في الحقول قبورهم ، ويرفعون في المدن مشانقهم ، ويعطون للأصنام أرزاقهم ، ويغسلون التماثيل بدموع عيونهم ...))[١].

إنّ هذا النص وإن كان مقتبسا من كلام (حمزة) إلا أنّه يفصح عن تجليات مسار الرأس الشريف ، وغاياته ، وأهدافه ، ومراميه التي تتجاوز حدود زمان ومكان الواقعة ، إنها تمتد في الزمان ، من زمن الذبيح يحيى ، وعبر العصور ، وفي الحقول ، والمدن ، عبر المكان .

المسار الثالث - مسار القتلة :

فلا يكاد المتلقي يتلمس منها شيئا غير ما أفصحت عنه الرواية في بدايتها من جفاء وغلظة وقسوة ، فلا (الرأس المرفوعة) ، ولا صرخات الأطفال ، وعويل النساء ، لتفعل فعلها في نفوس ختم الله عليها . إلا ما قد أحدثته في نفوسها ، وفي ممالكها من خوف وأرق ، حتى أعلن الطاغية ومن دون موارية أنّ مملكته ((صارت ... كلها مخاوف)) [٢] ، ولكم تمنى أنْ ((تختفي السيرة وينقطع القص)) [٣] ، وأنّى له ذلك ؟! .

بيد أنّ الكاتب لم يكن له أن يدع هذا المسار ليفلت من بين يديه ، من دون أن يثقله بحمولات رمزية ، وإيحائية شأنه شأن المسارات الأخرى ، فلم يكن لهذا المسار أن ينتهي ! – هكذا يرى الكاتب ، وهكذا هو الواقع – طالما كان هناك (الشمر العراقي) الذي أمر (الخليفة) بضربه ، وإرجاعه إلى (العراق) ! ؛ ((ليتوار هناك في أحد البيوت ...))[٤].

وليس لأمر (الخليفة) بإرجاع الشمر إلى العراق ، وأمره أن يتوار هناك في أحد البيوت ! ، ليس له أن يمر على مسامع متلقيه والباحث منهم ، من دون أن يثير في نفوسهم ، ومخيالاتهم أكثر من علامة استفهام ، وتعجب ، فهل استشرف (الراوي) واقع هذا البلد حتى لحظات كتابة هذه الأسطر ، فتمثل له (الشمر) مقيماً في بعض شوارعه ، أو بيوته !.

---

[١] - الرواية : ١٠
[٢] - الرواية : ١٧١
[٣] - الرواية : ١٦٩
[٤] - الرواية : ١٦٩

المسار الثاني ـ مسار السيدة (زينب) :

ولعل من أعظم تجليات هذا المسار أن المتلقي لا يظفر بخاتمة له ! فهو مسار ممتد يكاد لا ينتهي ، وإذا كانت ((رأس الحسين ... اختفت)) [١] ، ومن ثمّ ، نهاية مسارها في الرواية ، فإنّ مسار السيدة (زينب) لم يختف ، ولم ينته ، وإن انتهت الرواية ، بـ(زينب) تتسمر عندها حيث تقف في مجلس (يزيد) العيون والأقدام ، في إيحاء ملفت إلى استمرارية النهضة والثورة ، ولكن في صفحة أخرى من صفحاتها !. خُتمت الرواية بـ(زينب) ، ولم تختم ! ، وكأننا أمام (نهاية مفتوحة) تتعدد فصولها وشخصياتها ، ويظل مضمونها واحدا .

المسار الأول – مسار الرأس الشريف :

وليس للقاريء أو المتلقي أنْ يظفر باستقلالية تامة لهذا المسار على الرغم من كونه يمثل المسار الأهم من دون المسارات الأخرى ، والمحرك الأساس لكل افعال المسارات الأخر وردودها . إلا أنه يظل حاضرا في تضاعيف المسارات الثلاث الأخر .

الخطاب الروائي :

وأما على مستوى اللغة ؛ فإن ما تمتاز به الرواية من حيث اللغة بتعدد مستوياتها اللغوية ، ويبدو أنّ منشأ هذه التعددية ، مرده إلى تعدد الرواة فيها ، فضلاً تعدد مستويات الخطاب ، فضلاً عن اكتناز لغة الرواية بالرموز والإيحاءات .

ويعتقد الباحث أنّ الكاتب كان مسكونا بالحدث ببعده الواقعي و الفني ، ولم يكن أمامه ثمّة طريق سوى أن يصف الحدث وينطق شخصياته بهذه اللغة ؛ لإبراز تجليات الحدث ، وأبعاده ، وليس للمتلقي أن يدرك ماهية الحدث ، وكينونته ، وبعده إلا من فعل الشخصية ، ومنطقها ((فالشخصية هي التي تحدد للحدث الروائي مساره ، وتعكس كل ما يوحي به)) [٢].

ومن ثم فاللغة التي انطق الكاتب بها شخصياته ، ليس كما أدعى بعضهم أنها لا تتناسب مع الأجواء التراثية ، والشخصيات التاريخية [٣] ، فهذا القول صحيح لو بقيت الرواية حبيسة أطرها الزمانية والمكانية ، التي جرت فيها الواقعة ، ولم تمتد حتى العصر الراهن حيث الشمر العراقي يتوارى في أحد البيوت. والامتداد هذا في الزمان والمكان يقتضي بالضرورة تغاير في اللغة ومفرداتها .

---

[١] ـ الرواية : ١٧٤ .
[٢] ـ التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ : ٦٩ .
[٣] ـ قراءة في رواية رأس الحسين ، محمد الخباز ، مجلة الساحل ، فصلية تعنى بالثقافة والتاريخ في الخليج العربي ، العدد ٤ ، السنة الأولى ، خريف ٢٠٠٧ م : ١٤٩ .

ومن ثمّ فقد أفصح وصف الحدث عن عدّة مستويات لغوية هي :

لغة الأثر الفني : لعل من أبرز مزايا لغة القص في رواية (رأس الحسين) أنّها تعبر عن ((الأنقى و الأخفى ، وعن الغامض والشائع المتداول في آن واحد))[1] ؛ فالرواية تزخر بنصوص من النقاء والخفاء ما لا يتاح لأي متلق أن يقف على كنهها ، فـ((بعد هودج زينب ينفتح أفق الرمال الوسيع . تلال تلتهم النور ، ولا تشبع . والإبل مخاض وموج يزبّد تحتها ، ويعجن قلبها ، وهي بين أجنحتها وتمزقت أثوابها ، وتاهت أبصارها ، وتريد ماء وأكلا ... طابور طويل من الرجال ، هياكل من الخشب والمعدن ، الجيش الذي رأته قبل أسابيع ينحدر نحوهم كسيل من الطاعون ، كإعصار من الجراد ، وغمغمت في روحها طويلا ، ثم تلاشى كل أولئك الفرسان الذين حموها والنسوة الأخريات ، ووقعت أسيرة حفيدة الرسول ، أسيرة وفي حضنها عصافير بشرية صغيرة تصيح وتبكي ، تغمس أصابعها في الدم كأنه حليب ، وتهذي ، فيتوقف بكاؤها هي ، وتخاف أن ينهار الأطفال ، وتسحب نفسها من الحزن ، وتنزع الدموع من مقلتيها ، وتدوس على جراحها ، وتشاهد السماء الواسعة ، فتشد أصابعها ، وقبضتها ... لكن شلال الدمع ينهمر ، يطلع من تحت جفنيها وأصابعها وخديها ، تغص بصخور كبيرة تطلع من روحها ، تتدحرج في ممرات ملساء من الصخور ، والماء لا ينضب ، كأنها تنزف كل الماء الذي شربته ، والفرات البخيل بالماء تسقيه من طواحين عيونها ، فتخضر الأرض ، وتريد أن يتوقف هذا الدمع ، فلا وقت لديها للبكاء ، وهي آخر السلالة ، وأول القتال المرير الطويل ...))[2].

ولمقاربة النص ، فإنه لم يعد في كثير من عباراته منتمياً إلى عالمه المعجمي بشيء ، فأي معجم يعي : (التلال التي تلتهم النور ، ولا تشبع) و (سيل من الطاعون) و (إعصار من الجراد) ، و (الدمع الذي يطلع من الأصابع والأجفان) ، وغيرها .

أما أدبية النص فإنّه حتى من هذه الجهة خارج على ما هو متعارف عليه من قواعد الدال والمدلول ، وليس فيه من أساليب وقواعد البلاغة المعهودة ؛ فلم تعد اللغة في كثير من هذه النصوص ، وسيلة لبلوغ دلالات الكاتب ، ومراميه ، بل صارت هي بحد ذاتها غاية يتوقف عندها المتلقي ؛ لعله يعي بعض معاني (عيون النجوم ، وضحكات القمر ، ريش الضحك المتطاير) ، وما قد تنهض به من حمولات شتى ؛ ليتخذ منها مدخلاً لاستيعاب الدلالات الخفية للنص آخراً .

وإذا كان الإيحاء أو الرمز ، انزياح اللفظ عن دلالاته المعجمية ، وقدرة المبدع على تحميله بطاقات لغوية قادرة على رفد المتلقي بهما ، فإنّ رواية (رأس الحسين) ، بما يملك كاتبها من قدرات إبداعية ، أسهمت في

[1] ـ في الفلسفة والشعر ، هايدغر ، ترجمة : عثمان أمين : ٨٤ .
[2] ـ الرواية : ٣٤ ــ ٣٥ .

أن يتولد فيها ما بات يعرف بـ(لغة الأثر الفني)[١] ، ولعل من سمات الأديب المتمكن من لغته ، وأسلوبه أن ((يحرر الكلمة من قيد التصور الذهني ويطلقها حرة معتقة تسبح في خيال المتلقي)) [٢] .

اللغة الشعرية : وإذا كانت النصوص التي سيق بعضها تنطوي على أبعاد موغلة في فضاءات الرمز والإيحاء ، و (لغة الأثر الفني) ، فإنّ ثمّة مزية أخرى تحفل بها نصوص الرواية تلك اللغة الشفافة الموحية ، لغة الأحاسيس والمشاعر المفعمة بالشعرية .

ويبدو أنّ الكاتب كان مؤمنا أن ليست العبرة في الحدث بذاته ، بل في طريقة تقديمه ، وعرضه ولاسيّما فيما يتعلق بشعريته ((فمنذ الستينات ، أخذ يتبلور مفهوم جديد للأدب ووظيفته وعلائقه بالواقع والإيديولوجيا . وهذا التغيير في مفهوم الأدب يحرره من علاقة التبعية للسياسي والإيديولوجي ، ويعيد للنصوص قيمتها الذاتية التي تجعلها مميزة عن باقي الخطابات))[٣] .

ولا يعني تقويم النصوص الأدبية بما تملك من قيم إبداعية ذاتية ، انكفاء المبدع في صومعة بعيدة عن الناس ، والمجتمع ، وأنّ النتاج الأدبي ليس من شأنه أن يعالج قضاياهما أبدا ، فليست المسألة كذلك ((فما من أحد يعزل الكتابة الإبداعية عن الواقع ، وقضايا الإنسان ، ويقذف بهما إلى الفراغ ، وإنّما المسألة هي في معنى هذا الارتباط ، وفي نوعيته ، وكيفيته ، وهذا قلما نناقشه...)) [٤].

ولعل من أبرز تجليات عدم انكفاء النص على ذاته ، وانعزاله عن المجتمع ، بعد تجاوز القدرة الإبداعية للغة ذاتها ما يكتنز به النص من دلالات تتوزع ما بين النفسية ، والفكرية ، والخطابية .

ومن نماذج تلك الشعرية في الرواية : ((تأملي يا زينب هذه المدينة الجميلة في غلالة الصباح ، حيث النور يفتح عيون البيوت والطرق والحارات ، ويغسل النعاس والصمت والظلام ، والبشر ليسوا ذرات من تراب ، بل شخوصا حية ، عيونهم متسعة ترى ، وخطوط جباههم مثل كتاب مقروء ، تقفز سطوره على الحياة الملونة ، صارخة ، هيا يا ابنة علي لم يعد ثمّة وقت للنوم!))[٥].

((أيها الناس ... أترون تلك القافلة التي تسير ، إنها تحوي وجوها كثيرة ، إنها قادمة من مستنقع الدم ، من نافورة النور ، من زمن المسيح ، من زمن الذبيح ، ستجدون فيها رأساً ميتةً تتكلم ، وعينين هادئتين لكنهما تشعان ، والقافلة تسير وتوزع حبات الزهر والكلام للأنام الراقدين عبر العصور ...))[٦].

---

[١] - الأسلوب والأسلوبية ، عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ط٣ : ١١٧ .
[٢] - قراءة سيميولوجية لقصيدة إرادة الحياة ، عبد الله الغذامي ، مجلة الفكر ، العدد : ٤ : ٧٥ .
[٣] - الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع ، محمد برادة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧ م : ١٢ .
[٤] - دراسات في الشعرية العربية ، أدونيس : دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥ م : ١٩٢ .
[٥] - الرواية : ٩٣
[٦] - الرواية : ١٠٥

إن شعرية النصوص تظهر أن الكاتب يتعامل مع اللغة تعاملاً وجدانياً ، فالنصوص تضج بحزن عميق ، إلا أن الكاتب لم يكن ليتعامل مع اللغة بهذه الكيفية ؛ لاستدرار عواطف المتلقي ، أو لأنّ طبيعة الحدث والموقف كذلك في بعدها الواقعي ، والتاريخي ، فالذي يبدو للباحث أنّ ثمّة دلالة خفية لم يشأ الكاتب أن يفصح عنها بتقريرية ومباشرة ، فتفقد اللغة جماليتها ، ولعل مفاتح الوقوف على تلك الدلالات ما تضمره النصوص من تضاد ، ليس في لغة النصوص ، أو في أسلوبها ، وإنّما فيما تفضي إليه من مواقف ، فـ(الحزن) و (الخوف) على سبيل المثال ، يقعد الإنسان ، ويثبّط من عزيمته ، ولكنهما عند (ابنة علي) (عليها السلام) مصدراً للعزيمة ، ومواجهة التحديات ، والنهوض بأعباء الرسالة ، فليس ((ثمّة وقت للنوم [عندها]))[1] ! ، وليس لقوم أصابهم بعض ما أصاب الحسين ، وعيالاته ، إلا أنْ تثور في نفوسهم ثائرة الحقد والكراهية على كل الناس والأشياء ، في حين أنّ الرأس المرفوعة ، والعينين الهادئتين المشعتين ، والقافلة القادمة من زمن الذبيح ، توزع حبات الزهر لقاتليها ، وللأجيال عبر العصور !!!.

ومن ثمّ فإنّ النص الروائي يتشح بمسحة (صوفية) ، الأمر الذي مكّن الروائي من أنّ يرهف نصه بكل تلك الأحاسيس و الشعرية ، فـ((اللغة الصوفية ، هي تحديدا ، لغة شعرية ، وأنّ شعرية هذه اللّغة تتمثل في أنّ كل شيء فيها يبدو رمزاً : كل شيء فيها هو ذاته وشيء آخر ، الحبيبة مثلاً هي نفسها ، وهي الوردة أو الخمر أو الماء أو الله [ﷻ] ؛ إنها صور الكون وتجلياته . فالأشياء في الرؤية الصوفية متماهية مختلفة ؛ وهي – في ذلك – تتناقض مع اللغة الدينية الشرعية ، حيث الشيء هو ذاته لا غير))[2].

وفضلاً عن ذلك ، فللغة الصوفية القدرة على خلق عالمها الخاص داخل العالم ، تتعانق فيه الأزمنة ، فضلاً عن كونها ، لغة حبّ ، تعتمد الإشارة والرمز[3] ، وكذا كانت لغة رواية (رأس الحسين) .

ملاحظ ونتائج :

أولاً : بحكم أهميته ، وطبيعة علائقه بسائر عناصر السرد الأخرى ، لم يكن الحدث الروائي مجرد حاضنة ، وحسب لحركة الشخصيات ، والزمان والمكان ، بل أصبح أشبه ما يكون بالمرآة العاكسة لها .

ثانياً : لم يكن الحدث الروائي في الروايتين موضوعة البحث حدثاً مجرداً ، ليس من همّ الرواية سوى سرده وحسب ، بل احتفى بشتى الدلالات الفكرية ، والرمزية ، والإيحائية ، والجمالية ، فثمّة نصان ، أحدهما ما يتعلق بوصف الحدث ، والآخر ما يترشح عن وصف الحدث من تلك الدلالات ، والرموز ، فلا يكاد المتلقي يقف على نص ولاسيّما في الرواية الجديدة إلا وقد اكتنز بأبعاد ودلالات شتى !.

---

[1] - الرواية : ٩٣

[2] - الصوفية والسوريالية ، أدونيس ، دار الساقي ، ط٣ ، ٢٠٠٢ م : ٢٣

[3] - م . ن : ٢٣ – ٢٤ .

ثالثاً : قامت بنّية بعض النصوص الروائية التجريبية على نسق لم تعهده تنظيرات النقاد من قبل ومن ذلك نسق (التوالد والتناسج) ، أو نسق (اللوحات السردية) كما في الروايتين .

رابعاً : تعد اللّغة (لغة السرد) ، و(لغة الوصف) في الروايتين من أهم سبل الروائيين في إثقال الحدث الروائي بالحمولات الفكرية والفنية ، وتحملت بإيصال الجزء الأعظم من تلك الدلالات ، والرموز ، فكانت أن احتفت بـ : (اللغة الشعرية) ، (اللغة الصوفية) ، (لغة الأثر الفني) .

خامساً : اسهم ابداع الروائيين للرواية التجريبية ، وعلى وفق أنساق بنائية تتسم بالجدّة ، فضلاً عن اللّغة وبمستوياتها المتباينة ، أسهم في استجلاء كوامن وأبعاد الحدث التاريخي ، ويبدو للباحث أنّ الأنماط التقليدية في البناء الفني للرواية من حيث الأنساق ، واللّغة ليس لها أن تؤتي أكلها ، كما هو الحال في الأنماط الجديدة ؛ وهذا ما أسهم في مقروئية تلك الروايات .

المصادر والمراجع ...

- الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع ، محمد برادة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧ م .
- الأزمنة والأمكنة ، أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي ، مجلس المعارف ، حيدر آباد ، الهند ، ط ١ ، ١٣٣٢ هـ .
- الأسلوب والأسلوبية ، عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ط٣ .
- أنماط الرواية العربية الجديدة ، د . شكري عزيز الماضي ، عالم المعرفة (٣٥٥) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ٢٠٠٨ م .
- بناء الحدث في الفن القصصي – رواية تنظيرية - ، د . صبري مسلم ، مجلة اليرموك ، الأردن ، العدد : ٦٠ ، ١٩٩٨م .
- تحليل الخطاب الروائي الزمن ، السرد ، التبئير ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٩٩٧ م .
- التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ دراسة في تجليات الموروث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ م .
- تقنيات السرد في ضوء المنهج البنيوي المتخيل السردي مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة ، عبد الله إبراهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م .
- حوار مع الرواية المعاصرة في مصر وسوريا ، محمد القاعد ، دمشق ، أشبيلية للدراسات والنشر ، ١٩٩٧م .

- دراسات في الشعرية العربية ، أدونيس : دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥ م .
- دراسات في القصة العربية الحديثة ، د . محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، (د . ت) .
- ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله ، قدم له وشرحه مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .
- رأس الحسين ، عبد الله خليفة ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، ط١ ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، د . فاطمة الزهراء سعيد ، المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨١ م .
- الرواية الفرنسية الجديدة ، نهاد التكرلي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٥ م .
- الصوفية والسوريالية ، أدونيس ، دار الساقي ، ط٣ ، ٢٠٠٢ م .
- -فن التحرير العربي ، د . محمد صالح الشنطي ، ط٤ ، دار الأندلس ، حائل ١٩٩٦م .
- فن الشعر ، أرسطو ، ترجمة : إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٩م .
- فن القصة القصيرة ، د . رشاد رشدي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٤ م .
- فنون الأدب العالمي ، نبيل راغب ، لو نجمان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط١ ، ١٩٩٦ م .
- في الفلسفة والشعر ، هايدغر ، ترجمة : عثمان أمين .
- في نظرية الرواية دراسة مناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة ، د . سيد إبراهيم ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د . ط ، ١٩٩٨ م .
- قراءة سيميولوجية لقصيدة إرادة الحياة ، عبد الله الغذامي ، مجلة الفكر ، العدد : ٤.
- قراءة في رواية رأس الحسين ، محمد الخباز ، مجلة الساحل ، فصلية تعنى بالثقافة والتاريخ في الخليج العربي ، العدد ٤ ، السنة الأولى ، خريف ٢٠٠٧ م .
- القصة والرواية ، عزيزة مريدن ، دار الفكر، دمشق ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .
- المتخيل السردي مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة ، عبد الله إبراهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م .
- مدخل لجامع النص ، جيرار جنيت ، ترجمة عبد الرحمن أيوب ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، دار توبقال للنشر ، ١٩٩٠ م .

- مراثي الأيام ثلاث حكايات عن الموت ، حيدر حيدر – رواية – أمواج للطباعة والنشر والتوزيع ، ورود للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١ .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، ط٤ ، ٢٠٠٤ م .

رسائل الماجستير والدكتوراه :

- بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان مقاربة بنيوية ، زهيرة بنيني ، أطروحة دكتوراه في علوم الأدب الحديث ، جمهورية الجزائر ، جامعة العقيد الحاج لخضر ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، قسم اللغة العربية وآدابها ، ٢٠٠٨ م .

- الموضوع التاريخي في الرواية السورية المعاصرة ، هدى نايف الجبر ، رسالة ماجستير ، جامعة دمشق ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية وآدابها ، ١٩٩٠م .

الدوريات :

- رأس الحسين/ أسئلة التاريخ ... أسئلة الدم قراءة في رواية رأس الحسين للروائي عبد الله خليفة، د.عزالدين جلاوجي – مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية ، العام الرابع ، العدد ٣١ ، ٢٠١٧ ، الجزائر .
- مفهوم الأسلوبية عند جاكبسون ، عبد الرزاق الورتاني ، مجلة القلم ، العدد ١٠ ، تونس ، ١٩٧٧ م .

الشبكة العالمية للمعلومات :

- اللغة في الخطاب الروائي ، جميل حمداوي ، مجلة دنيا الوطن الالكترونية :

https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/11/27/64575.html